□ عُلُوُّ الهمَّةِ في الصِّدْقِ □

وهي منزلة القوم الأعظم ، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين . والطريق الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين . وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان ، وسُكَّان الجِنان من أهل النيران . وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه ، ولا واجَه باطلا إلا أرْداه وصَرعه ، مَنْ صال به لم تُردَّ صولتُه . ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمتُه . فهو روح الأعمال ، وَمَحَكُّ الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال ، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال . وهو أساس بناءِ الدِّين ، وعمود فسطاطِ اليقين ، ودرجته تالية لدرجة « النبوة » التي هي أرفع درجات العالَمين . ومن مساكنهم في الجنات : تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصِّدِّيقين . كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصلٌ وَمَعين .

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين ، وخصَّ المنعَم عليهم بالنبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ؛ فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين** ﴾ [النساء : ٦٩] ، فهم الرفيقُ الأعلى ﴿ **وَحَسُنَ أولئك رفيقًا** ﴾ ، ولا يزال الله يُمِدُّهُم بأنعمه وألطافه ومزيدِه إحسانًا منه وتوفيقًا . ولهم مرتبة المعيَّة مع الله ؛ فإن الله مع الصادقين . ولهم منزلة القرب منه ؛ إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين .

وأخبر تعالى أن مَنْ صَدقَه فهو خير له ؛ فقال : ﴿ **فإذا عَزَمَ الأَمْرُ فلو صدقوا الله لَكان خيرًا لهم** ﴾ ، [محمد : ٢١] .

وأخبر تعالى عن أهل البرّ، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم- من الإيمان، والإسلام ، والصدقة ، والصبر - بأنهم أهل الصدق ، فقال : ﴿ **ولكنَّ البِرَّ مَن آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفي الرقابِ وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفُون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرينَ في البأساء والضرَّاء وحينَ البأسِ أولئك الذين صدقوا وأولئك هُمُ المتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وهذا صريح في أن « الصدق » بالأعمال الظاهرة والباطنة ، وأن « الصدق » هو مقام الإسلام والإيمان .

وقسّم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق ؛ فقال : ﴿ **ليجزيَ الله الصادقين بصدقهم ويعذِّبَ المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾ ، [الأحزاب : ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق ، والنفاق أساسه الكذب ، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر .

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد ويُنجيه من عذابه إلا صدقُه ؛ قال تعالى : ﴿ **هذا يومُ ينفعُ الصادقينَ صدقُهُم لهمْ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ ، [المائدة: ١١٩].

وقد أمر الله رسوله أن يسأله أن يجعل مُدْخَله ومُخْرَجَه على الصدق ؛ فقال تعالى : ﴿ **وقلْ ربِّ أدخلْني مُدْخلَ صِدْقٍ وأَخرجني مُخْرجَ صِدْقٍ واجعل لي من لدُنكَ سلطانًا نصيرًا** ﴾ ، [الإسراء : ٨٠] .

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسانَ صِدقٍ في الآخرين ، فقال تعالى : ﴿ **واجعلْ لي لسانَ صِدقٍ في الآخرين** ﴾ ، [الشعراء : ٨٤] .

وبشَّر عبادَه بأنَّ لهم قدَمَ صِدْق، ومَقْعَدَ صدْق؛ فقال تعالى: ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قدَمَ صدقٍ عند ربهم** ﴾ الآية [يونس : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إنَّ**

المتقين في جنات ونَهَرٍ في مقْعدِ صدقٍ عند مليك مُقْتدِر ﴾ ' [القمر : ٥٤ - ٥٥] .

- وحقيقة الصدق في هذه الأشياء : هو الحق الثابت المتصل بالله ، والموصل إلى الله . وهو ما كان به وله ؛ من الأقوال والأعمال ، وجزاء ذلك في الدنيا وفي الآخرة .

- فمُدْخَل الصدق ، ومُخْرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله ، وفي مرضاته . كمخرجه ﷺ هو وأصحابه يوم بدر ، وكذلك مُدخله ﷺ **المدينة كان مُدْخل صدق بالله ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفَر** والنصر ، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة .

فكلُّ مُدخل ومخرج كان بالله ولله ، فصاحِبه ضامِن على الله ، فهو مخرج صدق مدخل صدق .

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء ، وقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك » .

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلًا آخر - إلا بصدق أو بكذب ؛ فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب . والله المستعان .

قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدِّيقون ﴾ .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : **« إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ،** تلك منازل الأنبياء ، لا يبلغها غيرهم !! قال : « والذي نفسي بيده ، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسَلين » .

وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن تصْدق الله يصدقْكَ » .

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال : « أَفلح إنْ صدَق » .

وقال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا ، وببيت في وسط الجنة لِمَن ترك الكذِبَ وإن كان مازِحًا ، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسَّن خُلقه »[١] .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الصدق يهدي إلى البِرِّ ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل لَيَصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا . وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل لَيكذب حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « إن الرجل لَيَصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا ، ويتحرّى الصدق حتى ما يكون للفجور في قلبه موضع إبرة يستقرُّ فيه . وإن الرجل لَيكذب ويتحرَّى الكذب حتى ما يكون للبِرِّ في قلبه موضع إبرة يستقرُّ فيه » .

وقال الصِّدِّيق رضي الله عنه : عليكم بالصدق ؛ فإنه مع البِرِّ ، وهما في الجنة .

وقال إبراهيم الخوَّاص : الصادق لا تراه إلَّا في فرْض يؤدِّيه ، أو فضلٍ يعمل فيه.

وقيل : ثلاث لا تُخطِئ الصادق : الحلاوة والملاحة والهيْبة .

وقال يوسف بن أسباط : لَأَنْ أَبيت ليلة أعاملُ الله بالصدق ، أَحبُّ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله .

وقال الحارث المُحَاسِبي : الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قدْرٍ له في قلوب الخلْق ؛ من أجل صلاح قلبه ، ولا يحبُّ اطلاع الناس على مثاقيل الذَّرِّ من حُسْن عمَلِه .

---

(١) رواه أبو داود ، الأدب : ٧ .

وقال بعضهم : مَن لم يُؤدِّ الفرض الدائم ، لم يُقبلْ منه الفرْض المؤقَّت .

قيل : وما الفرض الدائم ؟ قال : الصدق .

وقيل : مَنْ طلب الله بالصدق أعطاه مرآةً يُبصر فيها الحقَّ والباطل .

وقال سهل بن عبد الله : أول خيانة الصِّدِّيقين : حديثهم مع أنفسهم .

وقال أبو تراب النخشبي : إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله ، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت عمله . كأنس بن النضر رضي الله عنه ؛ وجد ريح الجنة قبل أن يُقاتل .

وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبتَ الله بالصدقِ ، آتاك الله تعالى مرآةً بيدك ، تُبصر كلَّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن كعب: إنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه عليه .

— الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرَّة :

قال الجُنَيد : « الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرة ، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٢٧٤ - ٢٧٦) : « مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا ؛ فإن المعارضات والواردات التي تردُ على الصادق لا تردُ على الكاذب المرائي ، بل هو فارغ منها ؛ فإنه لا يردُ عليه من قِبَل الحقِّ موارد الصادقين على الكاذبين المرائين ، ولا يُعارضهم الشيطان كما يُعارض الصادقين ؛ فإنه لا أرَبَ له في خَربةٍ لا شيءَ فيها ، وهذه الواردات تُوجب تقلُّب الصادق بحسب اختلافها وتنوُّعها، فلا تراه إلا هاربًا من مكان إلى مكان، ومن عمل إلى عمل ، ومن حال إلى حال ، ومن سبب إلى سبب ؛ لأنه يخاف في كلِّ حال يطمئن إليها ، ومكان وسبب أن يقطعه عن مطلوبه ، فهو لا يساكن حالة ولا شيئًا دون مطلوبه ، فهو كالجوَّال في الآفاق في طلب الغِنَى الذي يفوق به الأغنياء .

والأحوال والأسباب تتقلَّب به ، وتُقيمه وتُقعده ، وتحرِّكه وتُسكنه ، حتى يجد فيها ما يُعينه على مطلوبه ، وهذا عزيز فيها ؛ فقلبه في تقلب وحركه شديدة بحسب سَعة مطلوبه ، وعظمته وهمَّته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حالٍ ، أو يساكن شيئًا غيره ، فهو كالمحبِّ الصادق ، الذي همته التفتيشُ على محبوبه ، وكذا حال الصادق في طلب العلم ، وحال الصادق في طلب الدنيا ، فكلُّ صادق في طلب شيء لا يستقرُّ له قرار ، ولا يدوم على حالة واحدة .

وأيضًا : فإن الصادق مطلوبه رضا ربِّه وتنفيذ أوامره وتتبُّع محابِّه ، فهو **متقلِّب فيها يسير معها أين توجَّهتْ ركائبُها، ويستقلُّ معها أين استقلت مضاربُها،** فبينا هو في صلاة ، إذْ رأيتَه في ذِكْر ثم في غزو ، ثم في حجّ ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفْع ، ثم في أمْر بمعروف أو نهي عن منكر ، أو في قيام بسببٍ فيه عمارة الدين والدنيا ، ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة ، أو نصْر مظلوم إن أمكن ، إلى غير ذلك من أنواع القُرَب والمنافع . فهو في **تفرُّق دائم لله ، وجمعيَّة على الله ، لا يملكه** رسمٌ **ولا عادةٌ ولا وضع ، ولا** يتقيد بقيْدٍ ولا إشارة ، ولا بمكان معيَّن يصلّي فيه لا يصلي في غيره ، وزِيٍّ معيَّن لا يلبس سواه ، وعِبادة معيَّنة لا يلتفت إلى غيرها ، مع فضل غيرها عليها ، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة ، وبُعْد ما بينهما كبعدِ ما بين السماء والأرض .

فإن البلاء والآفات ، والرياء والتصنُّع ، وعبادة النفس وإيثار مرادها والإشارة إليها ، كلها في هذا الأوضاع والرسوم والقيود ، التي حبسَتْ أربابها عن السيْر إلى قلوبهم ، فضلًا عن السيْر من قلوبهم إلى الله تعالى ، فإذا خرج أحدهم عن رسْمِه ووضعه وزِيِّه وقيْده وإشارته - ولو إلى أفضل منه - استهجن ذلك ، ورآه نقصًا وسقوطًا من أعين الناس ، وانحطاطًا لرتبته عندهم ، وهو قد انحطَّ وسقط من عيْن الله .

وقد يحسُّ أحدهم ذلك من نفسه وحاله ، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيُّه وقيوده ، أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه . وهذا شأن الكذّاب المرائي الذي يُبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه ، العامل على عمارة نفسه ومرتبته ، وهذا هو النفاق بعينه ، ولو كان عاملًا على مراد الله منه وعلى الصدق مع الله؛ لأَثقلتْه تلك القيود، وحبستْه تلك الرسوم ، ولرأى الوقوفَ عندها ومعها عيْنَ الانقطاع عن الله لا إليه ، ولَمَا بالَى : أيَّ ثوب لبِسَ ، ولا أيَّ عملٍ عَمِل ، إذا كان على مراد الله من العبد .

فكلام أبي القاسم الجنيد حقٌّ ، كـلامُ راسخ في الصدق ، عالمٍ بتفاصيله وآفاته ، ومواضيع اشتباهه بالكذب .

ـــ وأيضًا فحمْل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يُطيقه إلا أصحاب العزائم ، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّب الحامل بحمْله الثقيل . والرياء والكذب خفيف كالريشة ، لا يجد له صاحبه ثقـلًا ألبتة ، فهو حامل له في أيِّ موضع اتفق ، بلا تعب ولا مشقَّة ولا كُلْفة ، فهو لا يتقلَّب تحت حمْله ، ولا يجد ثقلَه » .

قال بعضهم : لا يشمُّ رائحةَ الصدق عبدٌ داهَنَ نفسَه أو غيره .

الصِّدْقُ مِفْتاحُ الصِّدِّيقيَّة :

كما جاء في الحديث : « وإن الرجل لَيصدُق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا » .

فالصدق مفتاح الصِّدِّيقيَّة ومبدؤها وهي غايته ، فلا ينال درجتَها كاذبٌ ألبتة ، لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله ، ولا سيَّما كاذب على الله في أسمائه وصفاته ، ونفي ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه عن نفسه ، فليس في هؤلاء صِدِّيق أبدًا .

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرْعه بتحليل ما حرَّمه ، وتحريم ما لم

يُحرِّمه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما لم يُوجبه ، وكراهة ما **أحبَّه**، **واستحباب** ما لم يحبَّه . كل ذلك منافٍ للصِّدِّيقيَّة .

وكذلك الكذب معه في الأعمال ؛ بالتحلِّي بحلية الصادقين المخلصين ، والزاهدين المتوكِّلين ، وليس في الحقيقة منهم .

قالـوا لنـا أرضُنـا أرضٌ مباركــةٌ ... فيها الهدىٰ والتُّقىٰ والوحيُ والرُّسُلُ
ما لي أراها وبحـرُ الـزورِ يُغْرِقُهـا ... وأكـبرُ الأمـر في أرجـائهـا دَجَـلُ
لـم يَبْرحِ الـدمُ في يـومٍ مشانِقَهـا ... **حتى المشانِقُ قد ضاقتْ بمَن قُتِلُوا**
يـا لعنـةَ الـدم مَنْ يومًـا يُطهِّرُهـا ... فالـزورُ في أهلهـا دِيـنٌ لـهُ مِلَـلُ
في أيِّ شيءٍ أمـامَ الله قـد عـدَلُوا ... وكلُّهمْ كـاذبٌ قالـوا ومـا فَعَلُـوا
هـذا جبــانٌ وهـذا بـاعَ أُمَّتَـهُ ... وكلُّهـمْ في حِمَىٰ الشيطـان يَبتهِلُ
مِن يـومِ أنْ مزَّقـوا أحكـامَ ملَّتهـمْ ... وثوبُنا الخِـزْيُ والبُهْتـانُ والـزلَلُ
عارٌ على الأرضِ كيفَ الزورُ ضاجَعَهَا ... كيفَ استوىٰ عندها الكذَّاب والرجُلُ
يا وصمةَ العارِ هُزِّي جِذْعَ نخلَتِنا ... يَسَّاقطُ القهْـرُ والإرهـابُ والـدَّجَلُ
ما زالَ في القلبِ يدمى جرْحُ قرْطبةٍ ... ومسجدٌ في كُهوفِ الصمْتِ يبتهِلُ
فكـمْ بكَيْنا علىٰ أطـلال قرطبـةٍ ... وقُدْسُنا لـم تـزلْ في العـار تغتسِلُ
في القـدس تبكي أمـام الله مِئْــذنةٌ ... ونهـرُ دمعٍ علىٰ المحـراب ينهمِلُ
وكعبــةُ تشتكـي لله غُـرْبتَهــا ... وتنزفُ الدمعَ في أعتابِ مَن رحَلُوا
كانوا رجالًا وكـانوا للـورىٰ قبَسًا ... وجَذْوةً مِن ضميرِ الصـدقِ تشتعلُ
لم يَبْقَ شيءٌ لنا من بعد ما غـربتْ ... شمسُ الرجال تساوَىٰ اللصُّ والبطـلُ
لم يَبْقَ شيءٌ لنا مِن بعد ما سـقطتْ ... كلُّ القلاعِ تساوىٰ السَّفْحُ والجَبَلُ
في سـاحةِ الملكِ أصنامٌ مزركشـةٌ ... **عصابةٌ مَن رَمَادِ الصبحِ تكتحلُ**
من أين تأتي لوجْهِ الزورِ مَكْرُمةٌ ... **وأنْهُرُ الملحِ هلْ ينمو بها الشـجَرُ**
القاتلُ الوغدُ لا تحميهِ مِسبَحَـةٌ ... حتـى إذا قـام وسْطَ البيـتِ يعتمـرُ
في صفقـةِ العمـرِ دجَّـالٌ وسيِّدُهُ ... وأُمَّــةٌ في مـــزادِ المـــوتِ تنتحـرُ

يعقوبُ لا تبتئسْ فالذئبُ نعرفُهُ ... مِن دمِ يوسفَ كلُّ الأهلِ قَدْ سَكِرُوا
أسماءُ تبكي أمامَ البيتِ في ألمٍ ... وابنُ الزبير على الأعناقِ يحتضرُ
يا فارسَ الشِّعْرِ قلْ للشِّعْرِ معذرةً ... لنْ يسمعَ الشِّعرَ مَن بالوحي قد كَفَرُوا
وصِحْ على القبر هذي أمةٌ رحلتْ ... لم يَبْقَ من أهلِها ذِكْرٌ ولا أثَرُ

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة ، يصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادِق ؛ ويُؤْتَمنُ فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « السفيه يتكلَّم في أمر العامَّة »[(١)] .

أعلىٰ مراتبِ الصِّدْقِ : الصِّدِّيقيَّة ، وأعلىٰ مراتبِ الصِّدِّيقيَّة لأبي بَكْرٍ رضي الله عنه :

قال تعالى : ﴿ **والذي جاء بالصدقِ وصدَّقَ به أولئكَ همُ المتقون** ﴾ [الزمر : ٣٣] .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : والذي نفسي بيده ، إن الله سمَّى أبا بكر في السماء صِدِّيقًا .

فالذي جاء بالصدق : مَن هو شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله . فالصدق : في هذه الثلاثة .

فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السنبلة على

---

(١) إسناده جيد : رواه أحمد في مسنده ، وقال ابن كثير : إسناده جيد . وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده حسن .

والرَّابض : هو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها ، فهو التافه الخسيس الحقير .

ساقها . والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد . والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة ؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صِدِّيقيته ، ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : ذروة سَنام الصديقية ، سُمي : «الصِّدِّيق» على الإطلاق . و «الصِّدِّيق» أبلغ من الصدوق ، والصدوق أبلغ من الصادق .

فأعلى مراتب الصدق : مرتبة الصِّدِّيقيَّة ؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ ، مع كمال الإخلاص للمرسِل .

قال ابن القيم في « المدارج » ، (١/٣٩ - ٤٠) : « قال شيخنا : والصِّدِّيق أكمل من المُحَدَّث ؛ لأنه استغنى بكمال صِدِّيقيَّته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ؛ فإنه قد سلَّم قلبَه كلَّه وسِرَّه وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنى به عمَّا منه .

قال : وكان هذا المحدَّث يعرض ما يُحَدَّث به على ما جاء به الرسول ؛ فإنْ وافقه قبِلَه ، وإلا ردَّه ، فعُلِمَ أنَّ مرتبة الصِّدِّيقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : (حدَّثني قلبي عن ربي) . فصحيح أن قلبه حدَّثه ، ولكن عمَّن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربِّه ؟ فإذا قال:(حدثني قلبي عن ربي) ؛ كان مسندًا الحديث إلى من يَعلم أنه حدَّثه به ، وذلك كذِب » .

والفهم عن الله ورسوله عُنوانُ الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عُدَّ ألفٌ بواحدٍ .

صِدِّيق الأنصار سعْدُ بن معاذ ؛ قمَّةٌ سَامِقةٌ في علوِّ الهمَّة في الصدْق بعد الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه :

قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: « ثلاثة أنا فيهنَّ قوي ، وفيما سواهنَّ ضعيف:

ما صليتُ صلاة منذ أسلمتُ فحدَّثتُ نفسي حتى أفرغ منها .

ولا شيَّعتُ جنازةً فحدّثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقولٌ لها ، حتى يُفرَغ من دفنها .

وما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ، إلَّا علمتُ أنه حقٌّ » .

فقال ابن المسيِّب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلَّا في النبي ﷺ .

درجاتُ الصِّدْق :

قال الهروي : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : صدق القصد . وبه يصحُّ الدخول في هذا الشأن ، ويتلافى به كلّ تفريط ، ويتَدارَكُ به كلّ فائتٍ ، ويعمر به كلّ خراب .

وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقْضِ عهد ، ولا يصبر على صحبة ضِدّ ، ولا يقعُد عن الجدِّ بحال » .

قال ابن القيم في « المدارج » ، (٢/٢٧٩ - ٢٨٠) : « يعني **بصدق القصْد** : كمال العزْم ، وقوة الإرادة ؛ بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك ، وميل شديد يقهر السرَّ على صحَّة التوجُّه . فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور ، ولا يكون فيه قسمة بحال ، ولا يصحُّ الدخول في شأن السفر إلى الله والاستعداد للقائه ، إلَّا به .

« **ويتلافى به كلّ تفريط** » : فإنه حامل على كل سبب ينال به الوصولَ ، وقطْعِ كلِّ سبب يحول بينه وبينه ، فلا يترك فرصة تفوته ، وما فاته من الفُرصِ السابقة تَدَاركها بحسب الإمكان . فيصلح من قلبه ما مَزَّقتْه يدُ الغفلة والشهوة ، ويُعَمِّر منه ما خرّبتْه يد البطالة ، ويُوقد فيه ما أطفأته أهْويةُ النفس ، وَيَلُـمُّ منه ما شعَّثتْه يد التفريط والإضاعة ، ويستردُّ منه ما نهبتْه أُكُفُّ اللصوص والسُّرَّاق ، ويزرع منه ما وجده بُورًا من أراضيه ، ويقلَع ما وجده شوكًا وشِبْرَقًا في نواحيه ،

ويستفرغ منه ما ملأته موادُّ الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعَطَب ، ويُداوي منه الجراحات التي أصابتْه من عَبَرات الرياء ، ويغسل منه الأوساخ والحوْبات التي تراكمتْ عليه على تقادُم الأوقات ، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سوادُه ووسخُه الذي صار دِباغًا له ، فيطهِّره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكَدُورات ، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم ؛ فإنه لا يجاور الرحمٰن قلبٌ دَنِسٌ بأوساخِ الشهوات والرياء أبدًا . ولا بدَّ من طهور ، فاللبيب يُؤْثر أسهلَ الطهورَيْن وأنفعَهما . والله المستعان .

وقوله : « **وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمَّل داعيةً تدعو إلى نقْضِ عهْدٍ** » : يعني أن الصادق حقيقة : هو الذي قد انجذبتْ قوى رُوحه كلها إلى إرادة الله وطَلَبه ، والسير إليه ، والاستعداد للقائه . ومن تكون هذه حاله : لا يحتمل سببًا يدعوه إلى نقضِ عهده مع الله بوجْهٍ .

تضيقُ بنا الدنيا إذا غِبْتمُ عنَّا وتزهقُ بالأشواقِ أرواحُنا منَّا
بعادُكمُ موتٌ وقربكمُ حَيا ولوْ غبتمُ عنَّا ولو نفَسًا مِتْنا
نعيشُ بذكراكُمْ ونحيا بقربكمْ ألَا إنَّ تَذكارَ الأَحبَّةِ يُنعشنَا

وقوله : « **ولا يصبر على صحبة ضِدٍّ** » : الضدُّ عند القوم : هم أهل الغفلة ، وقُطَّاع طريق القلب إلى الله . وأضرُّ شيء على الصادق : صحبتهم ، بل لا تصبر نفسُه على ذلك أبدًا ، إلّا جمْعَ ضرورة . وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشَبَحِه دون قلبه وروحه .

وشُغلتُ عن فهْمِ الحديثِ سوىٰ ما كان عنكَ فإنَّهُ شُغلي
وأُديمُ نحوَ مُحدِّثي وجهي ليَرىٰ أنْ قدْ عقلتُ وعندكمْ عقلي

فإنَّ هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدقُ في الصادق ، أحسَّت رُوحه بالأجنبيَّة التي بينه وبينهم بالمضادَّة ، فاشتدت النّفرة ، وقوي الهَرب. وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها : تكون نفْرته وهربه عن الأضداد ؛

فإن هذا الضدَّ إن نطق أحسَّ قلب الصادق أنه نطق بلسان الغفلة والرياء ، والكبر وطلب الجاه . ولو كان ذاكرًا أو قارئًا ، أو مصلِّيًا أو حاجًّا ، أو غير ذلك ، فنفر قلبه منه . وإن صمت أحسَّ قلبه أنه صمت على غير حضور وجمعيَّة على الله ، وإقبال بالقلب عليه ، وعكوف السرِّ عليه ، فينفر منه أيضا ؛ فإن قلب الصادق قوي الإحساس ، فيجد الغيرية والأجنبية من الضدِّ ، ويشمُّ القلبُ القلبَ كما يشمُّ الرائحة الخبيثة ، فيزوى وجهُهُ لذلك ويعتريه عبوس ، فلا يأنس به إلّا تكلُّفًا ، ولا يصاحبه إلّا ضرورة ، فيأخذ من صحبته قدْر الحاجة ؛ كصحبةِ مَن يشتري منه أو يحتاج إليه في مصالحه ، كالزوجة والخادم ونحوه .

قوله : « **ولا يقعد عن الجدِّ بحال** » : يعني أنه لما كان صادقًا في طلبه مستجمِعَ القوة ، لم يقعد به عزمُه عن الجد في جميع أحواله ؛ فلا تراه إلا جادًّا ، وأمره كلّه جدٌّ » .

« **الدرجة الثانية** : أن لا يتمنَّى الحياة إلّا للحقِّ ، ولا يشهد مِن نفسه إلا أثر النقصان ، ولا يلتفت إلى تَرْفيه الرُّخَص » .

قال ابن القيم : « أي : لا يحبُّ أن يعيش إلّا ليشبعَ من رضا محبوبه ، ويقوم بعبوديته ، ويستكثر من الأسباب التي تُقرِّبه إليه وتُدنيه منه ، لا لعلّة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لولا ثلاثٌ لَمَا أحببتُ البقاء : لولا أن أحمل على جِياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايبَ الكلام ، كما يُنْتَقى أطايبُ التمر » .

يريد رضي الله عنه : الجهاد ، والصلاة ، والعلم النافع . وهذه درجات الفضائل ، وأهلها هم أهل الزلْفى والدرجات العليا .

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته : « اللهم إنك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ البقاء لجَرْي الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولا لنكح الأزواج ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الليل ، ومُزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق الذكْر » .

وقوله : « **ولا يَشْهد من نفسه إلا أثَرَ النقصان** » : يعني لا يرى نفسه إلا مقصِّرًا ، والموجب له لهذه الرؤية : استعظام مطلوبه ، واستصغار نفسه ومعرفته بعيوبها ، وقلَّة زاده في عينه . فمن عرف الله وعرف نفسه ، لم يرَ نفسه إلا بعين النقصان .

وأما قوله : « **ولا يلتفت إلى ترفيهِ الرخص** » : فلأنه - لكمال صدقه ، وقوة إرادته ، وطلبه للتقدُّم - يحمل نفسه على العزائم ، ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرُّخَص .

وهذا لا بدَّ فيه من التفصيل ؛ فإن الصادق يعمل على رضا الحق تعالى ومحابِّه . فإذا كانت الرُّخَص أحبَّ إليه تعالى من العزائم ، كان الْتفاته إلى ترفيهها ، وهو عيْن صِدْقه؛ فإذا أفطر في السفر ، وقَصَرَ وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه ، وخفَّف الصلاة عند الشغْل ، ونحو ذلك من الرُّخص التي يحبُّ الله تعالى أن يُؤْخَذَ بها ، فهذا الالتفات إلى ترفيها لا ينافي الصدق . بل هاهنا نكتة ؛ وهي أنه فرَّق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهًا وراحة ، وأن يكون متابَعةً وموافَقةً ، ومع هذا فالالتفات إليها ترفُّهًا وراحةً لا ينافي الصدق ؛ فإن هذا هو المقصود منها ، وفيه شهود نعمة الله على العبد ، وتعبُّده باسمه : « البَرُّ ، اللطيف ، المحسن ، الرفيـق» ؛ فإنه رفيقٌ يحبُّ الرفْق . وفي الصحيح:« ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرَيْن ، إلَّا اختار أيسرَهما ؛ ما لم يكن إثمًا » لِمَا فيه من روح التعبُّد باسم : « الرفيق ، اللطيف » ، وإجمام القلب به لعبودية أخرى ؛ فإن القلب لا يزال يتنقَّل في منازل العبودية ، فإذا أخذ بترفيه رخصةِ محبوبه ، استعدَّ بها لعبودية أخرى . وقد تَقْطعه عزيمتُها عن عبودية هي أحبُّ إلى الله منها ، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه ، والمُفطِر الذي يضرب الأخبية ، ويسقي الركاب ، ويضم المتاع . ولهذا قال فيهم النبي ﷺ : « ذهب المفطرون اليومَ بالأجر » .

أما الرُّخص التأويلية ، المستندة إلى اختلاف المذاهب والآراء التي تُصيب

وتخطئ : فالأخذ بها عندهم عين البطالة ، منافٍ للصدق » .

الدرجة الثالثة : « الصدق في معرفة الصدق ؛ فإن الصدق لا يستقيم - في علم أهل الخصوص - إلّا على حرف واحد ، وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته ، وإيقان العبد وقصده : بكون العبد راضيًا مرضيًا ، فأعماله إذن مُرضية، وأحواله صادقة، وقصوده مستقيمة. وإنْ كان العبد كُسي ثوبًا مُعَارًا ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحواله : زُور ، وأصفى قصوده : قُعود » .

قال ابن القيم: «يعني أن الصدق المتحقَّق إنما يحصل لمَن صدق في معرفة الصدق، فكأنه قال : لا يحصل حال الصدق إلا بعد معرفة علْم الصدق .

ثم عَرَّف حقيقة الصدق ، فقال:« لا يستقيم الصدْق - في علم أهل الخصوص - إلَّا على حرف واحد ، وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد ، أو حاله ، أو وقته ، وإيقانه ، وقصده » . وهذا مُوجب الصدق وفائدته وثمرته .

فالشيخ ذكَر الغاية الدالَّة على الحقيقة التي يُعرف انتفاء الحقيقة بانتفائها ، وثبوتها بثبوتها ؛ فإن العبد إذا صدق الله ، رضي الله بعمله وحاله ويقينه وقصده ، لا أن رضا الله نفس الصدق ، وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه ، ولكن مِن أين يعلم العبد رضاه ؟!

فمن هاهنا كان الصادق مضطرًّا - أشدَّ ضرورة - إلى متابعة الأمر ، والتسليم للرسول ﷺ ، في ظاهره وباطنه ، والاقتداء به والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون ، مع إخلاص القصد لله عز وجل ؛ فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك ، وما عدا هذا ففوتُ النفس، ومجرَّد حظِّها واتباع أهوائها ، وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلَوات ما كان . فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملًا أو يرضى به ، حتى يكون على متابعة رسوله ﷺ ، خالصًا لوجهه سبحانه .

ومن هاهنا يفارق الصادق أكثر السالكين ، بل يستوحش في طريقه ، وذلك لقلَّة سالكها ؛ فإن أكثرهم سائرون على طُرُق أذواقهم ، وتجريد أنفاسهم لنفوسهم ، ومتابعة رسوم شيوخهم . والصادق في وادٍ ، وهؤلاء في واد .

وقوله : « **فيكون العبد راضيًا مرضيًّا** » : لأنه قد رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا . فرضي الله به عبدًا . وأعمالُه إذن مَرضية لله ، وأحواله صادقة مع الله ، وقصوده مستقيمة على متابعة أوامر الله عز وجل .

وقوله : « **وإن كان العبد كُسِيَ ثوبًا معارًا ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحواله : زور ، وأصفى قصوده : قعود** » : هذا يُراد به أمران :

أحدهما : أن يُكسىٰ حِلْية الصادقين ، ويلبس ثيابهم على غير قلوبهم وأرواحهم ، فثَوْب الصدق عارية له ، لا مِلْكٌ له، فهو كالمتشبع بما لم يُعْطَ. فإنه كلابس ثوبي زُور ، فهذا أحسن أعماله : ذنب يُعاقَبُ عليه ، كما يعاقب : المقتول في الجهاد ، والقارئ القرآن المتنسِّك ، والمتصدِّق ، ويكونون أوَّل مَن تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة ، لمَّا لبسوا ثياب الصادقين على قلوب المرائين . وهذا معنًى صحيح ...... »[1] .

معاني الصدق وعلوُّ الهمَّة فيها :

الصدق الأول : الصدق في القول :

قال الجنيد : « حقيقة الصدق : أن تصدُق في موطن لا يُنجيك منه إلا الكذب » .

وقالوا : عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرُّك ؛ فإنه ينفعك ، ودَع الكذب حيث ترى أنه ينفعك ؛ فإنه يضرُّك .

(١) مدارج السالكين ٢/٢٧٩ - ٢٨٤ .

قال ابن مسعود : لا يصلح الكذب في هزل ولا جدّ ، ولا أن يَعِدَ أحدُكم حبيبَه شيئًا ثم لا يُنجزه به .

قال إسماعيل بن عُبيد الله المخزومي : أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلِّم بنيه الصدقَ كما أعلِّمهم القرآن ، وأن أجنِّبهم الكذب وإن كان فيه القتل .

عمر بن عبد العزيز :

كلَّم عمر بن عبد العزيز الوليد في شيءٍ ، فقال له : كذبتَ . فقال عمر : ما كذبتُ مذْ علمتُ أن الكذبَ يَشين صاحبَه .

وقال مطرِّف بن طريف : ما أحبُّ أني كذبتُ وأنَّ لي الدنيا وما فيها .

إياس بن معاوية :

قال إياس رحمه الله : ما يسرُّني أني كذبتُ كَذبة فغفرها الله عز وجل لي وأُعطى عليها عشرة آلاف درهم ، ويعلم بها أبي معاوية بن قُرَّة . يعني إجلالًا لأبيه لا يطلع عليه .

قال الفُضيل بن عياض : ما من مضغة أحبُّ إلى الله من لسان صدوق ، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب .

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مَطِيَّتك ، والحقَّ سيفَك ، والله تعالى غايةَ طلْبتك .

وقال أيضا : مَن كان الصدق وسيلته ، كان الرضا من الله جائزته .

وقال ذو النون المصري : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وُضِع على شيء إلا قطعَه .

ولهذا الصدق كمالات :

منها : الاحتراز عن المعاريض .

ومنها : أن يُراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربَّه ، كقوله :

﴿ وجَّهتُ وجهيَ للذي فطر السمواتِ والأَرض ﴾ ؛ فإن كان قلبه منصرفا عن الله مشغولًا بأماني الدنيا وشهواتها ، فهو كذب . وكقوله : ﴿إيَّاك نعبدُ﴾. فإذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامُه صِدقًا ، فكان عبْدًا لنفسه ، أو عبدًا للدنيا أو عبدًا لشهواته ؛ وفي الحديث : « تعِسَ عبدُ الدرهم ، تعِسَ عبدُ الدينار .. » . فسمَّى كلَّ مَن تقيَّد بشيء فهو عبدٌ له . فالعبد الحقُّ من أُعتق أوّلًا من غير الله فصار حرًّا ، فتحلُّ في قلبه العبودية لله . فالعبد الحق الذي وجوده لمولاه لا لنفسه ؛ وهذه درجة الصِّدِّيقين ، « عبد ذاهب عن نفسه » ، كما قال الجنيد : الحرية عن غير الله .

الإمامُ القدوةُ ، الوليُّ الربَّاني ، أبو مريم الغَطَفاني : ربعيُّ بنُ حِراش ؛ بلَغ الغايَةَ في الصِّدْق فيُنجِّي الله ولَدَيْه بصدْقه :

كان ربعي من « أشجع » ، زعم قومه أنه لم يكذبْ قطُّ[1] .

« قال الأصمعي : أتى رجلٌ الحجَّاجَ ، فقال : إن ربعيَّ بن حِراش زعموا لا يكذب ، وقد قدِم ولداه عاصِيَيْن . قال : فبعث إليه الحجاج ، فقال: ما فعل ابناك ؟ قال : هما في البيت ، والله المستعان . فقال له الحجَّاج بن يوسف : هُما لك . وأعجبه صِدْقه »[2] .

فلله درُّه من صادقٍ وفَّى بصدْقِهِ إلى الممات !!

عن الحارث الغنوي ، قال : « آلَى ربعي بن حراش أن لا تفترَّ أسنانُه ضاحكًا ، حتى يعلم أين مصيره . قال الحارث : فأخبرَ الذي غسَّله أنه لم يزل متبسِّمًا على سريره ونحن نغسِّله ، حتى فرغنا منه . رحمة الله عليه »[3] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/١٠١ ب .

(٢) السير ٤/٣٦٠ .

(٣) السير ٤/٣٦١ .

الربيعُ بن حِراش : العبد الصالحُ الذي تكلَّم بعد الموت :

«عن عبد الملك بن عُمير عن ربعي قال : كنَّا أربعة إخوة ، فكان الربيع أكثرنا صلاةً وصيامًا في الهواجر ، وإنه تُوفِّي ، فبينا نحن حَوْله قد بعثنا من يبتاع له كَفَنًا ؛ إذْ كشف الثوب عن وجهِهِ ، فقال : السلام عليكم . فقال القوم : عليكم السلام يا أخا عيسى ، أبعْدَ الموت ؟ قال:نعم ، إني لقيتُ ربي بعدكم ، فلقيتُ ربًّا غيرَ غضبانَ ، واستقبلني بروحٍ وريحان وإستبرقٍ ، ألا وإن أبا القاسم ينتظر الصلاة عليّ فعجِّلوني . ثم كان بمنزلة حصاة رُمي بها في طسْتٍ »[1] .

وفي رواية : « ....وَعَدتُ رسولَ الله ﷺ أن لا يذهبَ حتى أُدركَه . قال : فما شبَّهتُ خروجَ نفسِهِ إلَّا كحصاة ألقيتْ في ماءٍ فرَسَبتْ » .

الجيلاني : يتوبُ على يديْه وهو طفلٌ قُطَّاعُ الطريقِ بِصدْقِه :

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله : بنيتُ أمري على الصدق ؛ وذلك أني خرجتُ من مكة إلى بغداد أطلب العلم ، فأعطتني أمي أربعين دينارًا ، وعاهدتْني على الصدق . ولمّا وصلنا أرض (همدان) خرج علينا عربٌ ، فأخذوا القافلة ، فمرَّ واحد منهم ، وقال : ما معك ؟

قلتُ : أربعون دينارًا ، فظنَّ أني أهزأ به ، فتركني . فرآني رجلٌ آخر ، فقال : ما معك ؟ فأخبرتُه ، فأخذني إلى أميرهم ، فسألني فأخبرتُه ، فقال : ما حَمَلَك على الصدق ؟

قلتُ : عاهدتْني أمي على الصدق ؛ فأخاف أن أخون عهدها . فصاح باكيًا ، وقال : أنت تخاف أن تخون عهدَ أمِّك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله !! ثم أمَر بردِّ ما أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائبٌ لله على يديْك . فقال مَن معه : أنت كبيرُنا في قطْعِ الطريق ، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة . فتابوا جميعًا

---

(١) الحلية ٣٦٧/٤ ، ٣٦٨ والسير ٣٦١/٤، ورجالُ إسنادِه ثقات، ورواه عن عبد الملك غيرُ واحد .

ببركة الصدق وسببه .

الصدقُ الثاني : الصِّدْق في النيَّةِ والإرَادَة :

وذلك يرجع إلى الإخلاص ، وهو أن يكون لا باعثَ له في الحرَكَات والسَّكَنات إلّا الله تعالى ، فإنْ مازجه شوْبٌ من حظوظ النفس بطل صِدق النية ، وصاحِبُه يجوز أن يُسمَّى كاذبًا . ففي حديثِ (أولُ من تُسَعَّر بهم النـار) : « كذبتَ ، بل أردتَ أن يُقال : فلان عالم » . فإنه لم يكذبْه ولم يقلْ له : لمْ تعمل . ولكن كذَّبه في إرادته ونيَّته ، قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **والله يشهدُ إنهم لَكاذبون** ﴾ .

فمن شهد في إخلاصه الإخلاصَ ، احتاج إخلاصُه إلى إخلاص .

الصدقُ الثالث : الصدقُ في العَزْمِ :

فإنَّ الإنسان قد يقدِّم العزمَ على العمل ، فيقول مثلًا في نفسه : إنْ رزقني الله مالًا تصدَّقتُ بجميعه . وهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوعُ ميْلٍ وتردُّدٍ وضعْفٍ يُضادُّ الصدق في العزيمة .

والصادق في عزْمه : هو الذي تصادِف عزيمته في الخيرات كلها قوةً تامَّةً ليس فيها ميْل ولا ضعف ولا تردُّد ، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزْم المصمِّم الجازم على الخيرات ، وهو كما قال عمر رضي الله عنه : « لَأَنْ أقدَّم فتُضْرَب عُنقي ، أحبُّ إليَّ من أنْ أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه » .

ومراتب الصِّدِّيقين في العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزْم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خُلِّي ورأيه لم يقدّم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل في الصادقين والمؤمنين مَنْ لو خُيِّر بين أن يُقتَل هو أو أبو بكر ، كانت حياته أحبَّ إليه من حياة أبي بكر الصديق .

الصِّدْق الرابعُ : الصدقُ في الوفاءِ بالعَزْم :

فإن النفسَ قد تسخو بالعزمِ في الحالِ ؛ إذ لا مشقَّة في الوعد والعزم ، فإذا حُقَّت الحقائق ، وهاجت الشهوات ، انحلَّتِ العزيمة ولم يتحقَّق الوفاء بالعزم .

قال تعالى : ﴿ **مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليهِ فمنهمْ مَن قضىٰ نحْبَهُ ومنهمْ من ينتظر وما بدلوا تبديلًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « عمِّي أنس بن النضر - سُمِّيتُ به - لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ، فكبُر عليه ، فقال : أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه !! أما والله ، لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ، **لَيرينَّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم** أُحدٍ ، من العام المقبِل ، فاستقبله ، فقال : يا أبا عمرو ، إلى أين ؟ قال : واهًا لريح الجنة !! أجدها دون أُحد . فقاتل حتى قُتِل ، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون ؛ من بين ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ . قالت عمَّتي الرُّبيِّع بنتُ النضْر : فما عرفتُ أخي إلَّا ببَنَانِه . ونزلتْ هذه الآية : ﴿ **رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظرُ وما بدلوا تبديلًا** ﴾[1] .

لله درُّه من صادق ربانِّي !! يجد حلاوة العمل قبل الشروع فيه ، يجد ريح الجنة قبل أن يقاتل ! وما هذا إلّا لصدقه في الوفاء بالعزم !!

وعن نعيم بن هبار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء الذين يُقاتلون في سبيل الله في الصف الأول ، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يُقتلُوا ، فأولئك يُلقوْن في الغُرَف العُلا من الجنة ، يضحك إليهم ربُّك ، إن الله تعالى إذا ضحِك

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « جامعه » في كتاب التفسير ، وقال : حسن صحيح . والنسائي في « الكبرى » ، وصححه الألباني في « صحيح » الترمذي رقم ٢٥٥٧ ، وهو عند البخاري مختصرًا : أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ، وهو عند مسلم أيضًا.

إلى عبده المؤمن فلا حسابَ عليه »[(١)] .

الصدقُ الخامس : الصدق في الأعمال :

مخالفة الظاهر للباطن عن قصْد هي الرياء ، وإن كانت عن غير قصْدٍ ، يفوت بها الصدقُ ؛ فقد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن مرائيًا .

قال يزيد بن الحارث: إذا استوتْ سريرةُ العبد وعلانيتُه فذلك النَّصْفُ ، وإذا كانت سريرتُه أفضلَ من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيتُه أفضل من سريرته فذلك الجوْر .

وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أَمَرَ بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أتْرَكِ الناس له ، و لم أرَ أحدًا قطُّ أشبَهَ سريرةً بعلانيةٍ منه .

وكان أبو عبد الرحمٰن الزاهد يقول : إلهي ، عاملتُ الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتُك فيما بيني وبينك بالخيانة . ويبكي .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحقِّ في السر والعلانية .

فمساواة السريرة للعلانية أحدُ أنواع الصدق .

الصدقُ السادس : الصدقُ في مقامَاتِ الدِّين:

ومنها :

أ - الصدق في المحاسبة والمجاهدة والتوبة :

قال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيرَه كما لم

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأحمد ، وأبو يعلى وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٣٧٤٠ .

يختَرْ عليك غيرَك ؛ قال تعالى : ﴿ **هو اجتباكُمْ** ﴾ .

وقد مرَّ بك في المحاسبة والمجاهدة قولُ ابن الصمَّة ، وموته من جرَّاء المحاسبة .

أما التوبة :

فالصدق وعلو الهمة فيها : أن تكون توبةً نصُوحًا، لا يعودُ إلى الذنب مرةً ثانية حتى يعودَ اللبنُ في الضرْع ، ويخاف أنه لم يؤدِّها على الوجه المطلوب ، وأنه ما وفَّاها حقَّها و لم يبذلْ جهده في صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفًا من ذي الجلال ، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكدِّ في تحصيل الذنب ، أو اتقاءَ ما يخافه على عِرْضِهِ ومالِهِ ومنصبه ، **أو لضعفِ داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته. وإنما يتوب تعظيمًا لله** ولحرماته وإجلالًا له ، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده ، ومن البعد والطرْد عنه ، **والحجاب عن رؤيةِ وجهه في الدار الآخرة . ولا يتوب لعزّ التوبة وإنما للتقوى، وإنْ علم أن العزَّ يحصل له بالتوبة والطاعة .**

توْبة رجل من بني إسرائيل قَتَل مائةَ نفس :

روىٰ البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان في بني إسرائيل رجلٌ قَتَل تسعةً وتسعينَ إنسانًا ، ثم خرج يسأل ، فأتى راهبًا فسأله ، فقال له : ألي توبة ؟ قال : لا. **فقتله، فجعل** يسأل ، فقال له رجل : ائتِ قريةَ كذا وكذا . **فأدركه** الموت فنأىٰ بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه : **أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوجداه** إلى هذه أقرب بشبرٍ ، **فغُفرَ له** » .

ماعز والغامدية :

عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، **طهِّرني . فقال: «ويحك !!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه »**. قال: **فرجع غيرَ بعيد** ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، طهِّرني . فقال رسول الله ﷺ : « ويحك !!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه » . **قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال**: يا رسول الله، **طهِّرني. فقال النبي ﷺ مثلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال** له رسول الله ﷺ: **« فيمَ أُطهِّرك ؟ ». فقال**: من الزنى . فسأل رسول الله ﷺ : « أَبِهِ جنون ؟ » . فأُخبر أنه ليس بمجنون . فقال : « أشَرب خمرًا ؟ » . فقام رجل فاستنكهه[1] ، فلم يجد منه ريحَ خمر . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أزنيتَ ؟ » فقال : نعم . فأمر به فرُجم ، فكان الناس فيه **فرقتَيْن** : قائل يقول : لقد هلَكَ . لقد أحاطت به خطيئته . وقائل يقول : ما توبة أفضل من توبة ماعز ؛ إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ، ثم قال : اقتلني بالحجارة . قال : فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس ، فسلَّم ثم جلس ، فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » . قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن **مالك** . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمَّة لوسِعَتْهم » .

وفي حديث مسلم عن الغامدية وشأنها : « فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول **الله، إني قد زنيت فطهِّرني. وأنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت**: يا رسول الله ، لِمَ تردُّني ؟ لعلَّك أن تردَّني كما رددتَ ماعزًا ، فوالله إني لَحُبْلَى . قال : « إمَّا لا فاذهبي حتى تلدي » . فلمَّا ولدتْ أتته بالصبي في خرقة ، قالت : هذا قد ولدتُه . قال : « فاذهبي فأرضعيه حتى تَفطميه » . فلما فطمتْه أتته **بالصبي في يده** كِسْرة خبز، **فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمتُه، وقد أكل الطعام.**

---

(١) أي شمَّه .

فدفعَ الصبيَّ إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدْرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيُقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضَّح الدم على وجهِ خالد فسبَّها ، فسمع نبيُّ الله ﷺ سبَّه إيَّاها ؛ فقال : « مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ[1] لَغُفر له». ثم أمر بها فصلى عليها ودُفنتْ » .

وفي الحديث : الحرص التامُّ من ماعز والغامدية على تعجيل الطهارة ؛ إذ في إقامة الحدِّ حصولُ البراءة بطريق متيقَّن دون ما يتطرَّقُ إليه احتمال .

توْبةُ كعبِ بن مالك مثلٌ للتوبة النصوح :

عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أنَّ عبد الله بن كعب كان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ . قال : سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب بن مالك : لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلَّا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلَّفتُ في غزوة بدرٍ و لم يعاتِبْ أحدًا تخلَّف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك : أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيْسَر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعتُ قبلها راحلتيْن قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا ، واستقبل عدوًّا كثيرًا ، فجلا للمسلمين أمرَهم ليتأهَّبوا أهبة غزْوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) . قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد

---

(١) المكْس : الجِباية .

أن يتغيَّب يظنُّ أن ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزلْ فيه وحيٌ من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معه ، فأرجع ولم أقضِ شيئًا ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردتُ . فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا ، فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممتُ أن أرتحل ، فأدركهم ، فيا ليتني فعلتُ ، ثم لم يُقدَّر ذلك لي ، فطفِقتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خروج رسول الله ﷺ ، يُحزنني أني لا أرى لي أسوةً إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلًا ممَّن عذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكُرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » . قال رجل من بني سَلَمة : يا رسول الله ، حبَسَه بُرْداهُ والنظرُ في عطفيه . فقال له معاذ بن جبل : بئسَ ما قلتَ ! والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلَّا خيرًا . فسكتَ رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مبيضًا يزول به السراب ، فقال رسول الله ﷺ : « كنْ أبا خيثمة » . فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التمر حين لمزَه المنافقون . قال كعب بن مالك : فلمَّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا من تبوك، حضرني بثي ، فطفقتُ أتذكَّر الكذبَ ، وأقول : بمَ أخرج من سُخْطه غدًا ؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا ، زاحَ عني الباطل حتى عرفتُ أني لن أنجوَ منه بشيء أبدًا ، فأجمعتُ صدِقَه ، وصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتيْن . ثم جلس للناس ، فلمَّا فَعل ذلك جاءَه المخلَّفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم؛ ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمَّا سلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّم المغضَب ، ثم قال: «تعال». فجئتُ أمشي حتى

جلست بين يديه ، فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَك ؟ » . قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لَرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطِيتُ جدلًا ، ولكني والله لقد علمتُ لَئِن حدثتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ، لَيوشكنَّ الله أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عَلَيّ فيه ، إني لَأرجو فيه عُقبى الدار ، والله ما كان لي عذرٌ ، والله ماكنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك . قال رسول الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدق ، فقمْ حتى يقضيَ الله فيك » . فقمتُ وثار رجالٌ من بني سَلَمة فاتَّبعوني ، فقالوا لي : والله ما عَلِمناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا ، لقد عجزتَ في ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون ؛ فقد كان كافيَكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ، ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسي . قال : ثم قلتُ لهم : هل لقي هذا معي من أحدٍ ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلتَ ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك . قال : قلتُ : مَنْ هما ؟ قالوا : مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلَيْن صالحَيْن قد شهِدا بدرًا ، فيهما أسوة . قال : فمضيتُ حين ذكروهما لي . قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامِنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلَّف عنه . قال : فاجتنَبَنا الناسُ . وقال : تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأَرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بُيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم ، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتَيْه بردِّ السلام أم لا ؟ ثم أصلِّي قريبًا منه وأسارقُه النظرَ ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظرَ إليَّ ، وإذا التفتُ نحوَه أعرَضَ عني ، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين ، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ فسلَّمتُ عليه ، والله ما ردَّ عليَّ السلام ، فقلتُ له : يا أبا

قتادة، أنشُدكَ بالله، هل تعلمني أني أحبُّ الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعدتُ فناشدتُه فسكت ، فعدتُ فناشدتهُ ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضتْ عيناي ، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار ، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، إذا نَبَطِيٌّ - من نبطِ أهل الشام ممَّن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة - يقول : مَن يدلُّ على كعب بن مالك ؟ قال : فطفِقَ الناسُ يُشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من مَلِك غَسَّان ، وكنت كاتبًا فقرأتهُ ، فإذا فيه : أمَّا بعد ؛ فإنه قد بلغنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالْحَقْ بنا نُواسِك . قال: فقلتُ حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء !! فتيامَمتُ بها التَّنُّورَ فسجرتُها بها ، حتى إذا مضتْ أربعون من الخمسين واستلبث الوحي ، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمُرك أن تعتزلَ امرأتك. قال: فقلتُ: أطلِّقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا ، بل اعتزلْها فلا تَقْربنَّها . قال : فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك . قال : فقلتُ لامرأتي : الحقي بأهلِك ، فكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر . قال : فجاءتِ امرأةُ هلال بن أُميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكْرَه أن أخدمَه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يَقربنَّك » . فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك ؛ فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلتُ : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجلٌ شابٌ ؟ قال : فلبثتُ بذلك عشرَ ليالٍ ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهي عن كلامنا . قال:ثم صلَّيتُ صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا : قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحُبتْ ، سمعتُ صوتَ صارخٍ

أوفى على « سلْع »[١] ، يقول بأعلى صوته : ياكعب بن مالك ، أبشرْ . قال : فخررتُ ساجدًا ، وعرفتُ أنْ قد جاء فرج . قال:فآذنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشّروننا ، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشّرون ، ورَكَضَ رجلٌ إليّ فرسًا ، وسعى ساعٍ من « أسلم » قِبلي ، وأوفى الجبلَ فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشّرني ، فنزعتُ له ثوبَيَّ . فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبيْن فلبستُهما ، فانطلقتُ أتأمَّم رسولَ الله ﷺ ، يتلقّاني الناسُ فوْجًا فوجًا ، يُهنّئوني بالتوبة ويقولون : لِتهنئك توبة الله عليك . حتى دخلتُ المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عُبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور ويقول : « ابشرْ بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك » . قال : فقلتُ : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ فقال : « لا ، بل من عند الله » . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُهُ ، كأنَّ وجهَه قطعة قمر . قال : وكنا نعرف ذلك . قال : فلمَّا جلستُ بين يديْه قلتُ : يا رسول الله ، إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي ، صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : **« أمسكْ بعض مالك فهو خير لك »** . قال : فقلتُ : فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخيبر . قال : فقلتُ : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإنَّ من توبتي ألَّا أُحدث إلَّا صِدقًا ما بقيتُ . قال : فوالله ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، أحسنَ مما أبلاني الله به . والله ما تعمدتُ كذبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عزَّ وجل : **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار**

---

(١) سلْع : جبل في المدينة .

الذين اتبعوهُ في ساعةِ العُسْرةِ منْ بعد ما كادَ يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهمْ ثمَّ تابَ عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا حتَّى إذا ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم .. ﴾ حتى بلغ **﴿ يأيها الذينَ آمنوا اتقوا الله وكونوا معَ الصادقين ﴾** [التوبة :١١٧ - ١١٩] .

قال كعب : والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ ، بعد إذ هداني الله للإسلام ، أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألّا أكونَ كذبتُه فأهلِك كما هلَكَ الذين كذبوا . إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد؛ فقال الله: **﴿ سيحلفونَ بالله لكمْ إذا انقلبْتمْ إليهم لِتعرضوا عنهم فأعرِضُوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنَّم جزاءً بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لِترضَوْا عنهمْ فإنْ ترضوا عنهمْ فإنَّ الله لا يرضىٰ عن القوم الفاسقين ﴾** [التوبة : ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب : كنا خُلِّفنا أيّها الثلاثة عن أمْرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلَفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمْرَنا حتى قضىٰ الله فيه ، فبذلك قال الله عزَّ وجل : **﴿ وعلىٰ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا ﴾** [التوبة : ١١٨] وليس الذي ذكر **الله ممَّا خُلِّفْنا تخلُّفَنا** عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيَّانا ، وإرجاؤه أمْرنا عمَّن حلَف له واعتذر إليه فقَبل منه » **رواه مسلم**[(١)] .

توْبةُ أبي محمد حبيب العجمي :

عن أبي نُعيم الحافظ ، قال : كان سببَ إقبال حبيب أبي محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة ، حضوره مجلس الحسن ، فوقعتْ موعظتُه في قلبه ، فخرج عما كان يتصرَّف فيه ، ثقة بالله ومُكتفيًا بضمانه ، فاشترى نفسه من الله ، فتصدَّق بأربعين ألف درهم في أربع دَفْعاتٍ ، تصدَّق بعشرة آلاف درهم في أول النهار ، فقال : يا ربّ ، قد اشتريتُ نفسي منك بهذا . ثم أتْبَعَها بعشرة آلافِ

(١) صحيح مسلم ، جـ ٤ ، كتاب التوبة .

أخرى ، وقال : هذه شكرًا لما وفَّقْتني له . ثم أخرج عشرة آلافٍ أخرى ؛ وقال : يا ربّ ؛ إن لم تقبلْ مني الأولى والثانية ، فاقبلْ مني هذه . ثم تصدَّق بعشرة آلافٍ أخرى، فقال: يا ربّ، إنْ قبلت مني الثالثة، فهذه شكرًا لها[١] .

توْبةُ الفُضَيْل بنِ عِيَاض :

كان الفضيل يقطع الطريق وحدَه ، فخرج ذاتَ ليلة ليقطعَ الطريق ، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا ، فقال بعضهم لبعض : اعدلوا بنا إلى هذه القرية ، فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق ، يُقال له : الفُضيل . فسمع الفضيل فأرعَدَ ، فقال: يا قوم، أنا الفضيل، جُوزوا، والله لأجتهدنَّ أن لا أعصي الله أبدًا. فرجع عمَّا كان عليه .

ورُوي من طريق أخرى : أنه أضافهم تلك الليلة ، وقال : أنتم آمِنون من الفضيل . وخرج يرتاد لهم علَفًا ثم رجع ، فسمع قارئًا يقرأ : ﴿ **ألمْ يأنِ للذينَ آمنُوا أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكْرِ الله** ﴾ [الحديد : ١٦] . قال : بلى والله ، قد آن . فكان هذا مبتدأَ توبتِه[٢] .

توْبةُ بِشْر بنِ الحَارث الحَافي :

كان بشر في زمن لَهْوه في داره ، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون ، فاجتاز بهم رجل من الصالحين فدقَّ الباب فخرجتْ إليه جاريةٌ ، فقال : صاحب هذا الدار حُرٌّ أمْ عبدٌ ، فقالت : بل حرٌّ . فقال : صدقتِ ؛ لو كان عبدًا لاستعملَ أدب العبودية وترَك اللهو والطرب . فاستمع بشرٌ محاورتهما ، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا ، وقد ولَّى الرجل ، فقال للجارية : ويحكِ ! من كلَّمك على الباب ؟ فأخبرتْه بما جرى ، فقال : أيّ ناحية أخذ الرجل ؟ فقالت : كذا . فتبعه

---

(١) التوابين ٢٠١ .

(٢) التوابين ص ٢٠٧ - ٢٠٨

بشر حتى لَحِقَه ، فقال له : يا سيدي ، أنت الذي وقفتَ بالباب وخاطبْتَ الجارية ؟ قال : نعم . قال : أعِدْ عليَّ الكلام . فأعاده عليه ، فمرَّغ بشرٌ خدَّيْه على الأرض ، فقال : بل عبدٌ . ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرِف بالحَفَاءِ ، فقيل له : لِمَ لا تلبسُ نعلًا ؟ قال : لأني ما صالحني مولايَ إلَّا وأنا حافٍ ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات[1] .

ب - الصِّدْقُ في التوكُّل :

وقد مرَّ .

أن تردَ عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو إلَّا إلى مَن إليه الكفايات ، والاستسلام لتدبير الربِّ لك فيما يفعله بك ، لا فيما أمَرك بفعله ، وأن تُنزل أمورَك كلها بالله طلبًا واختيارًا ، لا كرها واضطرارًا .

قال رسول الله ﷺ : « إن رجلًا مِن بني إسرائيلَ سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار ، فقال ائْتني بالشهداء أُشهدهم . فقال : كفى بالله شهيدًا . قال : فأتني بالكفيل. قال كفى بالله كفيلًا. قال: صدقتَ: فدفعَها إليه إلى أجل مسمًّى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمسَ مركبًا يركبها يُقدِم عليها للأجل الذي أجَّله ، فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفةً منه إلى صاحبه ، ثم زجَّ[2] موضعَها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أني تسلَّفتُ فلانًا ألف دينار ، فسألني كفيلًا فقلتُ : كفى بالله كفيلًا ، وسألني شهيدًا فقلتُ : كفى بالله شهيدًا . فرضي بك ، وإني جَهِدتُ أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أجد ، وإني أستودعُكَهَا . فرمى بها إلى البحر ، حتى وَلَجتْ[3] فيه ، ثم انصرف ، فخرج الرجل الذي كان

(١) التوابين صـ ٢١٠ - ٢١١ .
(٢) زجّ : أي سوّى موضع النقر وأصلحه .
(٢) وَلجَ : دخل .

أسلفه ، ينظر لعلَّه يجد مركبًا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حَطَبًا ، فلمَّا نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدِم الذي كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار ، وقال : والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركبٍ لآتيك بمالك ، فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه . قال : كنتَ بعثتَ إليَّ شيئًا ؟ قال أُخبرك أني لم أجدْ مركبًا قبل الذي جئتُ فيه . قال : فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثتَ في الخشبة . فانصرفَ بالألفِ دينار راشدًا[1] .

جـ - الصدقُ في الخوْف :

وقد مرّ علو هِمَّة زرارة بن أوفى وعليّ زين العابدين وعلي بن الفُضيل ؛ إذا مرّوا بآيةٍ فيها ذكْر النار فكأنَّ زفيرها في آصال آذانهم .. قد براهم الخوْف بَرْيَ القِداح ، ويقال : قد خُولِطوا . وما خُولطوا ؛ ولكنه الخوْف !!

د ـ الصدقُ في الرضا :

وقد مرَّ .

هـ - الصدق في الاستقامة :

وقد مرَّ .

يقول الشاعر :

أردْناكمُ صِرْفًا فلمَّا مُزجتُمُ ... بعُدْتُم بمقدار الْتفاتكمُ عَنَّا
وقلْنا لكمْ لا تُسْكِنوا القلْبَ غيرَنا ... فأسكنتمُ الأغيارَ ما أنتمُ مِنَّا

لو غفل عنه مولاه لحظة ، فأيّ شيء يعوِّض خسارته فيما فاته ؟ !

قال الشاعر :

كلُّ شيءٍ لكَ مغفُو ... رٌ سوى الإعراض عنا
قدْ غفرْنا لك ما فا ... ت بقي ما فات مِنَّا

(١) رواه أحمد (٢/٣٤٨) ، البخاري (٢/١٥٩) ، (٣/١٢٤) .

وصدق في الدعاء .

وصدق في تعظيم حُرُمات الله .

وصدق في الحياء والحبِّ والشوْق إلى الله .

أمّا في عصرنا :

يُباح كلُّ شيء ... لمن ؟

لكاتبٍ أقلامُهُ مشدودةٌ … بحبالِ صوتِ جلالةِ الأُمراءِ
ولثائر يرنو إلى الحرية الْـ … حمراءِ عَبْرَ الليلةِ الحمراء
ويعومُ في عَرَقِ النضالِ ويحتسي … أنخابَهُ في صحَّةِ الأشلاءِ
للموثِقين على الرِّباطِ رباطنا … والصانعينَ النصرَ في صنعاءِ
ممّنْ يَرصُّون الصكوكَ بزحْفِهِمْ … ويُناضلونَ برايةٍ بيضاءِ
ويُسافحونَ قضيةً من صُلبهِمْ … ويُصافحونَ عداوةَ الأعداءِ
ويُخلِّفون هزيمةً لمْ يعترفْ … أحدٌ بها مِنْ كثرةِ الآباءِ
المُعْلنين من القصور قصورَهمْ … واللاقطينَ لقيطةَ اللُّقطاءِ

وفي عصْرِنا :

في كلِّ يوم يرتعُ الكَذِبُ الرَّخيص
على ضفاف الأُمَّةِ الثكْلَى
فترقصُ موْجةُ المذياع
تزهو الشاشة الصفراء
تنبت في أيادي الناس
مزبلة نسمِّيها صَحِيفه
في كل يوم يخرجُ المذياعُ والصحفُ اللَّقيطهْ
تُعلن البشرى لشعبٍ ماتَ من زمنٍ
ويبدو في سَواد الليل كالعِفْريتِ أشباحًا مخيفهْ

وفي عصـــرنا :

الصـدقُ مليكٌ مطـرودٌ
لا جاهَ لديهِ ولا سلطـانْ
سَجنـوه دوامًا في قفصٍ
سـرَقوا الأوسِمَةَ مَعَ التِّيجـانْ
صلَبـوا أجنحةَ الطيـرِ
وبـاعُـوا المـوتٰى والأكفـانْ
قطعـوا أوردة الصـدقِ
ونصَبـوا سـرْكًا للبهتـانْ

* * *